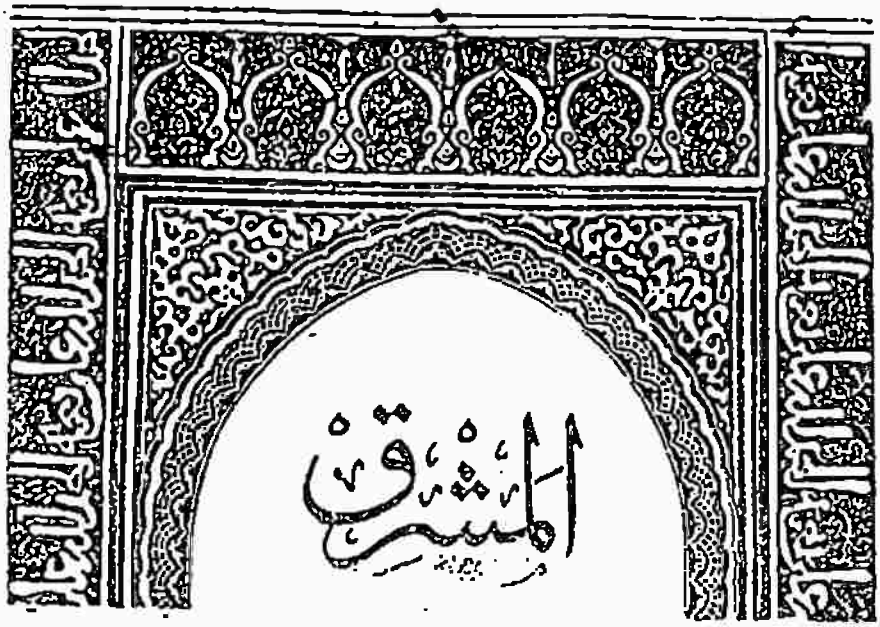

السنة الثالثة والثلاثون

كانون الثاني سنة اذار ١٩٣٥

الثأر عند العرب

وصفته الدينية

بقلم الاب لامنس اليسوعي

تقدم لنا كلام في سطحية العاطفة الدينية في النفس العربية قبل الاسلام[1]، وفي بُعد هذه النفس عن الاكتراث للشاغل الدينية، وفي خلوّ الشعر الجاهلي، ذاك الشعر الذي نسبه ارنست رينان الى « العبث وعدم التقوى »، من ايّ اثر للشعور الديني العميق والتقوى الصحيحة.

على اننا نشعر، في القرن الذي وُلد فيه محمد، بان « الله » بدأ يظهر شيئاً فشيئاً، فيعلو اسمه اسما. تلك الآلهة والالاهات، بل تلك الحجارة المؤلّهة التي اعتاد العربُ ان يولوها بعض التكريم. من الحقّ انهم ظلّوا يحلفون «باللات

---

١) اطلب مقالنا في « الحالة الدينية في بلاد العرب قبل الاسلام » (المشرق ٢٩ [١٩٣١] ٨١٥-٨٢٢)

والعُزّى »، ولكنهم بدأوا يزيدون عليهما — مع الشاعر اوس بن حجر — اسم الله »،

ان الله منهنّ أكبرُ !

الله أكبر !

هو هتاف التوحيد الذي سوف ينشره الاسلام في انحاء الجزيرة.

ولكن كيف كان معاصرو أوس من الجاهليين يتصوّرون هذا الاله الاكبر ؟ أكانوا يعتقدونه ابا لتلك الالامات كما قد ينتج من قول القرآن (٣٧: ١٤٩؛ ٥٢: ٣٩) — ام كانوا لا يميزون بينه وبين « الدهر »، على ما في هذه اللفظة نفسها من الغموض ؟

كلها امور بحاجة الى عناية شديدة في درسها وتمحيصها، وبحاجة الى الكثير من الشواهد القديمة . وهي عقبة نصادفها كلّما تصدنا الى تفهم عاطفة اولية غامضة، او الى شرح لفظة قديمة شملت مدلولات متأخرة عن عصرها . من ذلك عجزنا اليوم عن تعداد الواجبات الاخلاقية التي كان يفرضها على عرب الجاهلية مدلول « الدين » القديم . وقد نُسرع في عصرنا وننسب الى تلك اللفظة ما تحتوي عليه اليوم من دلالة على عقائد مقرّرة معروفة، وفروض ثابتة محدودة، فنضلّ ونُضلّ . ولهذا فلا بدّ من التحفظ الكلي، اذا ما اردنا مثل هذا التحليل .

بيد اننا لا نُخطئ اذا ما جعلنا بين الفروض التي كان يفرضها على البدوي « دينُه » القديم، « دين العرب »، فرض الثأر[1] . وقد كان البدو يعتبرون هذا الواجب من اثبت مؤسساتهم التقليدية، بل من افضل الضمانات لحياتهم في تلك البلاد . وليس للبدوي الا اسلوب واحد في احترام عادة او شريعة، ليس له الا طريقة واحدة في الاقرار بقيمتها الاجتماعية، هي ان يحسبها بالتقديس ويدخلها بين الفروض القليلة التي تؤلف مادّة « الدين » . وهكذا كان فعله

١) يرادف الثأر « الوِتر »، ومنه « الموتور »، اي المصاب الذي يقع عليه واجب الاخذ بالثأر . ويسمّى هذا ايضاً « الوليّ » (القرآن ١٧: ٣٣؛ ٢٧: ٥٠) ويكون عادة اقرب اقربائه القتيل.

بعادة « الثأر » . وقد رأيت ان احاول درس مدلول الثأر ، وتبيان مركزه المهم من تلك الآراء والعبادات الضئيلة التي كانت تؤلف « دين العرب » قبل الاسلام

١

لم يقم شعب من الشعوب بما قام به البدو في سبيل تعزيز صلات القرابة الدموية . وليس هذا لاهتمامهم بما وراء الحياة ، او لان الموت شغلتهم اسراره الغامضة ، فطمحوا الى معرفة الحياة الاخرى . انما كانوا يعتقدون ان في الدم المبدأ الحيوي او « النفس السائلة » كما قالوا[1] . ولهذا فقد رأوا ان سفك الدم يتطلّب الانتقام ضرورة . وانه ، اذا لم يأخذ « وليّ » الثأر بثأره ، اي اذا لم ينتقم قريب القتيل لقتيله ، فان الدم المسفوح يقع اثمه على رأس الوليّ ، حتى آخر نقطة . ومما زاد هذا الاعتقاد رسوخاً في اذهانهم ، فرقهم فوق الانانية والفردية اللتين اتصفوا بهما ، هو تحققهم ان طلّ الدم ، او عدم الانتقام ، يفكك اواصر الاسرة ، وهي آخر الحلقات الاجتماعية ، بل الحلقة الوحيدة المعروفة في تلك الحياة الفوضوية في بلاد العرب .

ومن ثمّ فان مصرع النسيب او الجار يزيل حالاً ما يكون من الاختلافات بين افراد الاسرة او القبيلة ، فيعيد الاتفاق الظرفي ويوحد النزعات في سبيل طلب الثأر . بل ان هذا الواجب ، طلب الثأر ، يفعل الافاعيل العجيبة في تلك الطبيعة البدوية الجانحة الى التواكل والكسل ، وحب اللذة السهلة ، والراحة الدائمة ، المنصرفة فطرةً عن الرغبة في الحروب وسفك الدماء ، على ما يبدو من عصبيتها وسرعة احتدامها . انه يحوّل الفتيان الضعاف ، بل الجبناء ، الى رجال شدّة لا يتراجعون امام عقبة ، ولا يخشون حرماناً في سبيل غايتهم . ولا يخرج النساء عن هذا المظهر الذي يكاد يكون قاعدة عامة . فان امهات القتلى واخواتهم ينادين الرجال ، وقد يفقنهم ، حماسةً واندفاعاً في اظهار تلك العاطفة الانتقامية باشعارهنّ ، واناشيدهنّ المهوّسة حتى يُثرنَ ما كمن في صدور الرجال ويدفعنهم الى الاسراع في طلب الثأر ؛ وهو الفرض الديني ، كما سنرى . او لم يجعل هذا

---

١) المسعودي : مروج الذهب ٣ : ٢٠١

الفرض من امرئ القيس ، ذاك الشاعر العابث ، معاقر الخمرة ورفيق الملاهي ، بطلًا تائهاً لا يرتوي ظمأه من الدماء ، ولا يهدأ اضطرابه الا اذا اخذ بثأر ابيه ؟

ولا يخالنّ القارئ ان الدافع الى طلب الثأر فطرة دموية في البدوي او غريزة انتقامية هائجة . لا انما هو عاطفة برّ بالاهل تهيب به الى ارواء «صدى» القتيل بدم القاتل ، حتى وان كان ذاك القتيل قد نبذ وليّ ثأره في حياته ، فطرده من اسرته ، كما فعل حجر الكندي بابنه امرئ القيس . فلم يمنع هذا ابنه ان يطالب بدمه قائلًا «ضيّعني صغيرًا ، وحمّلني دمه كبيرًا .»[1] هو دين الاسرة يفهمه البدوي كل الفهم ولا يناقش فروضه ، بل يخضع لها الخضوع التامّ . بيد انه لا يغفل عمّا تجرّه عليه هذه الفروض من اقتحام عقبات وتعرّض للموت . هو يرى المخاطر فيخافها ويظهر قلقه واضطرابه ، ولكنه يشجّع نفسه على الثبات فيقول :

اقول لنفسٍ لا يُجاد بمثلها : أقلّي العتاب ، انني غيرُ مدبرِ [2]

يتعلّق بالحياة ولا يخفي تعلقه ، ولكنه يرى طلب الثأر واجباً دينياً ، فيحضّ نفسه عليه ، ويرفع صوته عالياً ، لعلّه يدفع ارادته الضعيفة الى تحقيق هذا الواجب الصعب المؤلم الدافع الى المخاطر والاهوال ، ولكنه واجب ديني لا مهرب منه . ولقد ادّى الامر بالبدوي ، في هذا النزاع بين واجب الثأر ونفور النفس من القيام به ، الى اختراع قيود مختلفة دخلت في «طقسيات» الثأر ، اذا جاز لنا التعبير ، وكانت الغاية منها مساعدة البدوي في تذكيره الدائم بواجبه ، وتقوية ارادته ، ردفعه الى قتل القاتل . من ذلك انه عمد الى نفسه المفطورة على الحرية بل على الفوضى، النافرة من كل نظام ، المنصرفة عن كل رغبة زهدية فيها شيء من الحرمان والتقشّف ، فقيّدها بسلسلة من التقشّفات

١) الاغاني ٨ : ٦٧

٢) حماسة البحتري (طبعة شيخو) ص ٩ – وهو من المعاني المتواردة في الشعر . قابل بما ورد في الحماسة نفسها رقم ٣ و ٦ ؛ عامر بن الطفيل : الديوان (طبعة Lyall) ١١ : ١١ ؛ والجاحظ : الحيوان ٦ : ١٤٤ ، ١٤٥ ؛ وابن هشام : سيرة الرسول (Wüstenfeld) ٤٣٣ ؛ وحماسة ابي تمام (Freitag) ٤٨٣ البيت ٣

والتضحيات تضير انانيته وشهوانيته معاً . بل تذهب الى ابعد من ذلك اذ تبدو لديه ، وعليها مسحة دينية من « الاحرام » ، فتضعه في « الحرم » ، على لغة الكتاب المقدس[1] ، حتى يقوم بواجبه خير بأيمانه . وهذا « الحرم » او « الاحرام » كان من شأنه ان يفصل « المحروم » عن الجماعة ، عن القبيلة وعن الاسرة ، فيسمه بسمة الضحية البشرية المعدّة لتنفيذ واجب ديني سام ؛ حتى ان « الاحرام » و« الثأر » اصبحا كلمتين متوافقتين في طرق التعبير القديمة لا تُذكر الواحدة منهما الا اردفت بها الثانية . اما مدلول الاحرام او ما يشمله من « التحريمات » فكان بان يمتنع وليّ الثأر عن الكحل ، والدهن ، والطيب ، واللحم ، والخمر ، وألفة النساء ، والاجتماع الى افراد أسرته . هذا في اول الامر ، ولنا عليه الامثلة العديدة . الا ان العادة خففت شيئاً فشيئاً من هذه التحريمات ، فرفعت منها هجر النساء والاسرة . ومن اوضح الحوادث دلالة على شريعة الاحرام هذه ، وعلى ان العرب كانوا يلجأون اليها تقيداً لانفسهم ، وتكفيراً عن اهمالهم القيام بهذا الواجب الصعب ودفعاً لهم في طلب الثأر ؛ وعلى ما كان يقوم به النساء من التحريض كذلك ، ما ذكره صاحب الاغاني عن ريحانة بنت معديكرب من انها « قالت لدريد بن الصمة بعد حول من مقتل اخيه : « يا بني ، ان كنت عجزت عن طلب الثأر باخيك ، فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد . » فأنف من ذلك ، وحلف لا يكتحل ولا يدّهن ولا يمسّ طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره . فغزا هذه الغزاة ، وجاءها بذؤاب بن اسماء فقتله بفنائها . وقال : « هل بلغتِ ما في نفسكِ ؟ » قالت : « نعم ، متعت بك . »[2]

وقد كان البدويّ ينظر الى هذه التحريمات نظره الى اسمى مظاهر الزهد ، وهو لا يعرف غيره من التضحيات التي ترفعه الى العالم السامي ، الى « التأله » ، كما كان يُقال .

وعلى مطالع اليوم ، كي يفهم شمول هذا الاحرام ، ان يلقي نظرة على ما

[1] راجع Delporte, *L'anathème de Jahvé : recherches sur le herem préexilien.* [*Rech. de Sc. religieuse*, V, p. 321, 331]

[2] الاغاني ٩ : ٧

كانت تمثله في حياة البدوي تلك المواد التي يحرّمها الوليّ على نفسه :

كانت الخمرة شراب السراة تدلّ على يسر شاربها ورخاء حياته ، وتشير الى انه « سيد » ، وكل بدوي كان يرمي الى السيادة . ثم ان قلة الماء كانت تحرم العرب من متابعة الاغتسال والنظافة . ولولا حليب النوق لهلك نصف البدو عطشاً . ولنقس على ما تقدم باقي المحرّمات ، فنفهم ما كان يشعر به العربي ، المفطور على اللذة والانانية ، عندما كان يحرّم على نفسه كل ما تقدّم ذكره من اللذائذ الرفيعة في نظره ، فيرتقي الى اعلى درجات « التأله » ، كما اشرنا اليه ، ويرى نفسه انه قام بما يفرضه عليه « دين العرب » . ويدلّ هذا « الاحرام » ، فوق ذلك ، على قيمة الحياة البشرية في نظر البدوي ، وعلى احترامه تلك الاواصر التي تربط اعضاء الاسرة العربية حتى ما وراء القبر .

ثم ان البدوي يعتبر الوفاء بالذمم من صفات السادة الكرام ، بل هي فضيلة لا يضطلع بها الا السراة الاغنياء في القبائل الكبيرة . وهو يفتخر اذا ما حفظ العهد ووفى بالذمة ، بينما غيره من الاقوام يخونون ويخفرون ، فيردّد الشعراء افتخاره . فهو السموأل يقول :

اذا ما خان اقوامٌ وفيتُ

وهو حاتم الطائي يفتخر :

لعمرك ، ما اضاع بنو زيادٍ ذمارَ ابيهم فيمن يضيعُ (١

وهم الشعراء يمدحون الاوفياء :

فهبك ابن هندٍ لم تخنك امانةٌ ؛ وما المرء الا عنده ومواثقه ! (٢

. . .

انت الوفيّ فما تُذَمّ ، وبعضهم يودي بذمته عُقابَ مَلاعِ (٣

. . .

غدرتَ بأمرٍ انت كنت اجتذبتنا عليه ، وشرّ الشيمة الغدر بالعهدِ (٤

ويؤيد البدوي عهده بالأيمان المحرّجة التي يحتفل بحلفها ، حتى اذا ضعفت

---

١) ديوان حاتم الطائي ١ : ١

٢) الاغاني ١٩ : ١٢٨

٣) المفضليات ١٢ : ٢٤

٤) الاغاني ١٩ : ١٢٨

فيه عاطفة الشرف ، وهي لا تقوى احياناً على مجابهة انانية البدو وشراستهم ، دفعته الأيمان الى القيام بالعهد والاخذ بالثأر. ولهذا فاننا نرى القيام بالثأر يتصل دائماً بحلف اليمين . وان هذه اليمين لترفع البدوي ، الى حين ، فوق انانيته بل فوق فطرته النازعة الى الكسل والراحة والتلذذ ، فتجعله « قاضي نذور » يشعر بمسؤوليته وباهمية الواجب المقدس الملقى على عاتقه، «والنذور لها وفاء» ، وتدفعه الى القيام بتلك الأعمال العظيمة النادرة المحفوفة بالجلبة والضجيج افتخاراً واعلاناً . فيمدحها الشعراء المعاصرون ، ويأتي ، بعد ذلك ، ارباب البحث من المستشرقين فيمتدحونها ، ويشاركون شعراء الجاهلية في تضليلنا اذا ما اردنا الحكم ، حكماً صائباً ، على القيمة الاخلاقية في ذاك الكائن المحفوف بالاسرار والالغاز ، الا وهو البدوي من اي عصر كان !

اما اذا قام الولي بنذره ، اذا وفى عهده واخذ بثأره ، فانه يعود الى الحياة العادية فخوراً بعمله محلّلاً لنفسه كل ما كان قد حرّمه ، ولاسيما الخمر ، منصرفاً اليه بكل ما اوتيه من اندفاع في اللذة وسير وراء الشهوة ، لا يخشى اثماً ولا يخاف عاقبة ؛ فيقول كما قال امرؤ القيس ، بعد ادراك ثأره :

حلّت لي الخمر ، وكنت امرءًا عن شربها في شغلٍ شاغلِ
فاليوم أُسقى ، غيرَ مستحقبٍ إثماً ، من الله ، ولا واغلِ (١

او كما قال المثلّم بن عمرو الكندي ، مشبّهاً واجب الثأر بالهم الثقيل كالجبل :

اني ابى الله ان اموت ، وفي صدري همٌّ كأنه جبلُ
يمنع مني طعم الشراب ، وان كان رحيقاً مزاجه عسلُ ،
حتى تنفضُ الوترَ القديم ، ودا نيتُ بيوتاً وبينها خللُ (٢

وهذا قول خالد بن عمرو بن مُرّة الشيباني :

اليوم حلَّ لي الشراب ، وما كان الشراب يحلّ لي قبلُ !
وجزيتُ سعدًا بالذي فعلوا ، وأُحِلّ لي ، ساوية ، القتلُ

١) حماسة البحتري (طبعة شيخو) الرقم ١٥٢
٢) حماسة البحتري (طبعة شيخو) الرقم ١٥٣

ولقد أبأتُ باخوتي مائةً منهم ، فلا لومٌ ولا عذلُ ! (١

ومثله قول وبيعة بن ابي عمرو القيني :

حانت لي الدهر ، اذ غادرت سيّدهم في جيب سرباله من نفسه دُفَعُ
ما زلت أبني ابا ليلى واندبه في الحيّ ، طفلاً الى ان نالني الصلعُ (٢

وهذا يدلنا ايضاً على التطويل في الاخذ بالثأر مما يؤيد قولنا في ان البدوي كان يتحيّن الفرص الموافقة للقيام بذاك الواجب الديني ، وقد عاطل في تأدية ما عليه ، مقاوماً كله الفطري ونفوره من القتل بتلك التحريات والنذور والايمان التي ذكرناها . وقد يستعين ، في ثأره ، بغيره من ذوي البأس والجاه كما جرى لقيس بن الخطيم في حادثة قد تكون افضل شاهد على تلك المؤسسة الدينية الاجتماعية ، وما تفرضه على الوليّ من فروض ، وما يلجأ اليه من حِيَل في القيام بها .

ولا بأس في ان نروي الحادثة ، كاملةً على طولها ، وهي فوق ما فيها من الفوائد التاريخية ، اثر ادبي قصصي لا بأس به . وهذه هي ، كما ذكرها صاحب الاغاني عن ابن الكلبي . . . عن محمد بن عمّار بن ياسر ، وكان عالماً بحديث الانصار ، قال :

« كان من حديث قيس بن الخطيم ان جدّه عديّ بن عمرو قتله رجلٌ من بني عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يُقال له مالك . وقتل اباه الخطيمَ ابنَ عديّ رجلٌ من عبد القيس ممن يسكن هجر . وكان قيس يوم قُتل ابوه صبيّاً صغيراً . وقُتل الخطيم قبل ان يثأر بابيه عديّ . فخشيت ام قيس على ابنها ان يخرج فيطلب بثأر ابيه وجدّه ، فيهلك . فعمدت الى كومة من تراب عند باب دارهم ، فوضعت عليها احجاراً وجعلت تقول لقيس : « هذا قبر ابيك وجدك » . فكان قيس لا يشكّ ان ذلك على ذلك . ونشأ أيداً شديدَ الساعدين ، فنازع يوماً فتى من فتيان بني ظَفَر ، فقال له ذلك الفتى : « والله ، لو جعلتَ شدّة ساعِدَيك على قاتل ابيك وجدّك لكان خيراً لك من

١) حماسة البحتري (طبعة شيخو) الرقم ١٠٤

٢) حماسة البحتري (طبعة شيخو) الرقم ١٠٦

ان تخرجها عليّ ! » فقال : « ومَن قاتل ابي وجدّي ؟ » قال : « سل أمك تخبرك . » فاخذ السيف ووضع قائمه على الارض وذبابَه بين ثدييه وقال لامه : « أخبريني من قتل ابي وجدي . » قالت : « ماتا كما يموت الناس ، وهذان قبراهما بالفناء. » فقال : « والله لتُخبرينني مَن قتلهما او لأتحاملنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . » فقالت : « اما جدّك فقتله رجل من بني عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ؛ واما ابوك فقتله رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر . » فقال : « والله لا انتهي حتى اقتل قاتل ابي وجدّي. » فقالت : « يا بنيّ ، ان مالكاً قاتل جدّك من قوم خداش بن زهير ، ولابيك عند خداش نعمة هو لها شاكر ، فأته فاستشرهُ في امرك ، واستعنهُ يُعنك . » فخرج قيس من ساعته حتى اتى ناضحه[1] ، وهي يسقي نخله ، فضرب الجرير[2] بالسيف فقطعه ؛ فسقطت الدلو في البئر ، واخذ برأس الجمل فحمل عليه غرارتين من تمر ، وقال : « مَن يكفيني امر هذه العجوز ؟ (يعني أمّه) فان مِتّ انفق عليها من هذا الحائط[3] حتى تموت ثم هو له ؛ وان عشت فمالي عائد اليّ ، وله منه ما شاء ان يأكل من تمره . » فقال رجل من قومه : « انا له » . فاعطاه الحائط.

ثم خرج يسأل عن خداش بن زهير حتى دُلّ عليه بمرّ الظّهران . فصار الى خبائه فلم يجده . فنزل تحت شجرة يكون تحتها اضيافه . ثم نادى امرأة خداش : « هل من طعام ؟ » فاطلعت اليه فاعجبها جماله ، وكان من احسن الناس وجهاً ؛ فقالت : « والله ، ما عندنا من نُزل نرضاه لك إلاّ تمراً . » فقال : « لا أبالي ، فأخرجي ما كان عندك . » فأرسلت اليه بقُباع فيه تمر . فأخذ منه تمرةً ، فأكل شقّها وردّ شقّها الباقي في القُباع . ثم أمر بالقُباع فأدخل على امرأة خداش بن زهير . ثم ذهب لبعض حاجاته . ورجع خداش فاخبرته امرأته خبر قيس ، فقال : « هذا رجل متحرّم » . واقبل قيس راجعاً ، وهو مع امرأته يأكل رُطباً . فلما رأى خداش رجلَه ، وهو على بعيره ، قال لامرأته : « هذا ضيفك ؟ » قالت : « نعم » قال : « كأنّ قدمه قدم الحطيم صديقي اليثربي . » فلما دنا منه

١) ناضحه : اي بعيره الذي يستقي عليه الماء

٢) الجرير : الحبل ٣) الحائط : البستان

قرع طُنب البيت بسنان رمحه واستأذن . فاذن له خداش . فدخل اليه . فنسبه ، فانتسب واخبره بالذي جاء له ، وسأله ان يعينه وان يشير عليه في امره . فرحّب به خداش وذكر نعمة ابيه عنده ، وقال : « ان هذا الامر ما زلت اتوقعه منك منذ حين . فامّا قاتل جدّك فهو ابن عمّ لي ، وانا اعينك عليه ؛ فاذا اجتمعنا في نادينا جلستُ الى جنبه وتحدّثت معه ، فاذا ضربتُ فخذه ، فثب اليه فاقتله . » فقال قيس : فاقبلت معه نحوه حتى قمت على رأسه لما جالسه خداش ؛ فحين ضرب فخذه ضربت رأسه بسيف يقال له ذو الخُرصين . فثار اليّ القوم ليقتلوني . فحال خداش بينهم وبيني ، وقال : « دعوه ؛ فانه ، والله ، ما قتل الا قاتل جدّه . »

ثم دعا خداش بجمل من ابله فركبه ، وانطلق مع قيس الى العبدي الذي قتل اباه ، حتى اذا كانا قريباً من هجر اشار عليه خداش ان ينطلق حتى يسأل عن قاتل ابيه ، فاذا دُلّ عليه قال له : ان لصًّا من لصوص قومك عارضني فاخذ متاعاً لي ، فسألتُ من سيدُ قومه ، فدُللتُ عليك ، فانطلق معي حتى تأخذ متاعي منه . فان اتبعك وحده فستنال ما تريد منه . وان اخرج معه غيره فاضحك ، فان سألك عمّ ضحكت ، فقل : ان الشريف عندنا لا يصنع كما صنعت اذا دُعي الى اللصّ من قومه ؛ انما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ، فاذا رآه اللص اعطى كل شيء اخذه هيبةً له ؛ فان امر اصحابه فسبيل ذلك ، وان ابى الا ان يمضوا معه فأتني به ، فاني ارجو ان تقتله وتقتل اصحابه . » ونزل خداش تحت ظلّ شجرة . وخرج قيس حتى اتى العبديّ فقال له ما امره خداش ، فاحفظه ، فامر اصحابه فرجعوا مع قيس . فلما طلع على خداش قال له : « اختر ، يا قيس ، إمّا ان أعينك وإمّا ان أكفيك . » قال : « لا اريد واحدة منها ، ولكن ان قتلني فلا يُفلتنّك . » ثم ثار اليه ، فطعنه قيس بالحربة في خاصرته فانفذها من الجانب الآخر ، فمات مكانه . فلما فرغ منه قال له خداش : « إنّا ، ان قررنا الآن طلبنا قومه . ولكن ادخل بنا مكاناً قريباً من مقتله . فان قومه لا يظنون انك قتلته واقت قريباً منهم . ولكنهم اذا افتقدوه اقتفوا اثره ، فاذا وجدوه قتيلاً خرجوا في طلبنا في كلّ وجه ، فاذا

يئسوا رجعوا.» (قال) فدخلا في دارات من رمالٍ هناك. وفقد العبديّ قومه، فاقتفوا اثره فوجدوه قتيلًا. فخرجوا يطلبونها في كل وجه، ثم رجعوا؛ فكان من امرهم ما قال خداش. واقاما مكانهما اياماً ثم خرجا. فلم يتكلما حتى أتيا منزل خداش. ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى اهله. ففي ذلك يقول قيس من قصيدة طويلة:

ثأرت عديّاً والخطيمَ، فلم أضع   وصيّة اشياخٍ جُعلت إزاءها (١

وليس ابلغ من هذه الحادثة في البرهان عمّا قدّمناه من صفات «الثأر» عند العرب، وممّا توليه شريعة التحرّم من واجبات يتحمّل المضيف كلّ نتائجها، مهما كان فيها من مصاعب او من فروض قد ينفر من القيام بها. لنسلّم بان الراوي قد بالغ في سرد الحادثة وقد جنّل فيها وبدّل ما شاء؛ انما هناك امر لا سبيل الى انكاره هو تلك المؤسسة، بل تلك العقيدة، التي تمثلها الحادثة.

وهناك حادثة اخرى عن بدويّ اسمه عُمير بن سلمى يثأر لجاره من اخيه، فيستحقّ لقب «اوفى العرب» (٢

وفي حماسة البحتري حادثة من هذا النوع اختار فيها الراوي اسماً لائقاً ببطله فدعاه «وفاء»، قال:

«حجّ وفاء بن زهير المازني في الجاهلية... وقدم على اهله، فوجد اخاه وقد غدر بجارٍ له فقتله. فانتضى سيفه. فناشده الله والرحم. وخرجت امه كاشفة شعرها، وقد اظهرت ثدييها تناشده الله في قتل اخيه. فقال لها: علامَ سمّيتني وفاء اذا كنت اريد ان اغدر. ثم ضرب اخاه بسيفه حتى قتله، وقال:

يناشدني قيس قرابة بيننا   وسيفي بكفّي، وهو متجرّدٌ يبس
غدرتَ، فما بيني وبينك ذمّة   تجيرك من سيفي، ولا رحم تُرعى
سأرحض عني ما فعلتَ بضربةٍ   عقيم البديّ لا تكرّ ولا تُثنى.» (٣

قد يتسرّع مطالع هذه الحوادث، فينسب البدو الى الاخلاق المعجبة

---

١) الاغاني ٢: ١٦٠–١٦٢

٢) ابن دريد: كتاب الاشتقاق (طبعة Wüstenfeld) ص ٢٠٦

٣) حماسة البحتري (طبعة شيخو) الرقم ٧٢٨

ويحكم عليهم بالانطباع على اهراق الدماء . فيخطئ الخطأ العظيم . ولا تظهر الحقيقة الا اذا تابعنا التدقيق في ماهية «الثأر» العربي، فنشعر بانه افضل المؤسسات البدوية عائدة علينا في درسنا العقلية الدينية في بلاد العرب قبل الاسلام.

***

لا يؤخذن الدارس بذاك المظهر الجافي الذي يخفي خلق البدوي ، فيحول بينه وبين فهم حقيقته ، ويضل في احكامه سواء السبيل . فالبدوي ليس شرساً من فطرته ، ولا ميالاً الى سفك الدماء ، على رغم ما ينسب اليه الحضريون من اعمال القسوة والهمجية .

وُلد البدوي في بيئة قاسية ، محرومة ، فنشأ فردياً انانياً لا يتكل الا على نفسه . فكان انه قدر كافضل ما يكون قيمة الحياة البشرية ، ونفر ، على توتر اعصابه وسرعة تأثره ، من التسرع في اهراق الدم . هو يكره القتل ، ولا يلجأ اليه ، الا في ما ندر ، وفي حالة الدفاع عن النفس وحدها . وما كان الثأر الا من هذه الحالات تصبغه العادة بالصبغة الدينية ، فترتفع به الى مرتبة المؤسسات والعقائد . وليس نفوره من اهراق الدم نتيجة التأثم ، او الندم ، او التوبة . لا فان البدوي ، اذا ما دُفع الى قتل مثيله ، لا يشعر بانه ارتكب عملاً شائناً من تلك الاعمال التي يسميها « الفواحش » او « المخزيات » . وهذه اشدّ ما في قاموسه الاخلاقي من مفردات يسم بها الشعراء اعظم المجرمين في نظرهم . وهؤلاء هم الذين يسيئون ، لا الى الفرد ، بل الى القبيلة باعتدائهم اماً على افرادها واما على النازلين عليها او جيرانها . اما الغريب عن القبيلة فلا حقوق له معروفة ، ولا ضمانة قضائية تضمن حياته او امواله . بل ان لكل انسان ، اذا كان قادراً ، ان يستبيح حماه كما قال اوس بن حجر :

نُبيح حمى ذي العزّ ، حين نريده ، ونحمي حمانا بالوشيج المقوّم (١

او ان يقتله ، على غير جرم ، دون ان يشعر باثم . وهذا قول عامر بن الطفيل من فرسان الجاهلية المشهورين :

---

١) ديوان اوس بن حجر ٦٣ : ١٢

قتلنا يزيد بن عبد المدان على غير جرم ، ولم نظلم (١)

ومما يظهر هذا الشعور بالبراءة ويدلّ على عدم تحرّج البدوي ، حالتُه اذا ما دُفع الى قتل رجل ، فاصبح « حامل دم » . اننا نراه مرتفع الرأس ، يجول بين الاحياء من مضرب الى مضرب ، ومن جوار سيّد الى جوار آخر ، بل يتجاوز مضارب قبيلته الى منازل الحلفاء ، يمدّ يده مستعطياً كي تكتمل له قيمة الدية فيجمع عدداً من الابل كافياً لدفع ثمن الدم . يمدّ يده دون خجل ولا حيرة ، فيستقبله قومه وحلفاء قومه بارتياح ان لم نقل بترحاب . ولا يرى احد منهم لنفسه الحقّ بلومه او باستيضاحه اسباب عمله . ذلك ان القتل حادث نادر في تلك الحياة المضطربة في القفر . والجميع يرون في القاتل ، لا مذنباً ، بل شقيّاً مسكيناً تهوّر في اندفاعه ولم يتمالك اعصابه ، او خانته الاحوال ، فدُفع الى القتل . فيجتهدون ، كلّ على قدر استطاعته ، في تخليص ذاك المسكين من مأزقه وفي معاونته على تأليف الدية ، كما يجتهد الناس في انقاذ اسير او اعانة فقير ، وهم معتقدون ان كلًّا منهم قد يصيبه يوماً ما اصاب هذا المسكين فيصبح بحاجة الى معاونة افراد القبيلة وحلفائها في جمع نياق الدية[٢] . ولا يخفى ان سادة القبيلة ورؤساء أسرها يكونون اول من يتسابقون في اعانة القاتل ، فهم « يحملون الدم » عنه . فيندفع الشعراء الى ذمّ السيّد منهم ، في جملة ما يعنّفونه به ، بانه « حمّال » ، و« حامل ديات » و« حامل دماء » و« حامل اثقال » ، واذا بلغ الذروة العليا في هذا الحمل غدا « حامل مئين »[٣] اي انه يعطي مئات الابل في سبيل دفع الديات . هذه شريعة القفر ، تلك الشريعة التي يذكرها الشاعر زهير بن ابي سُلمى الناطق بلسان الحق العربي القديم :

تُمنّى الكلوم بالمئين ، فاصبحت يُنجّمها من ليس فيها بمُجرم (٤)

هذا التفور من اهراق الدم ينتج عند العرب من شريعة الثأر ، تلك الشريعة

---

١) ديوان عامر بن الطفيل ٢٠ : ١

٢) راجع كتابنا *Le Berceau de l'Islam* I, 247

٣) الطلب المصادر في *Le Berceau de l'Islam*, I, 249-250

٤) شعراء النصرانية (طبعة شيخو) ص ٥١٧

القاسية التي افهمت البدوي ان كل قاتل يُقتل . فشعر ، بغريزته وعقله ، بنفعها الجمة ، وفهم انه لولاها لكانت معيشته عرضة للاخطار الدائمة في ذاك القفر ، بل لكانت حياته مستحيلة . وهو ما اقرّه القرآن بقوله : « ولكم في القصاص حياة ! »[1]

في القصاص حياة ، وفي الثأر حقن الدماء ؛ ولاسيما ابّان الغزوات المستديمة في الجزيرة . ولا يخفى ما يحفّها من مخاطر ومهالك يزيد هولها ان هذه الغزوات اصبحت ، على قدم عهدها ، من العادات المألوفة في كسب المعاش عند العرب . على ان حياة البدوي تضمنها شريعة الثأر ، حتى في تلك الغزوات . والعرب اذا تكلموا عنها قلّما يذكرون القتل . انما يلجأون اليها طريقةً للكسب ، ويتخذونها وسيلةً لليسر مخطرةً ، دون شك ، ولكن قلّما يصل خطرها الى الموت . وهذا حاتم الطائي ، اذا مّا وجد نفسه عاجزاً عن اداء حقوق ضيوفه ، صرفهم معتذراً طالباً منهم ان يعودوا اليه « بعد الغارة » . وقد يتكارم على الطالب من اموالٍ يكون قد نهبها من قبيلته ، كما جرى له مع ابي جبيل ، وكان هذا من « حاملي الدماء » ، على ما جاء في ديوان حاتم ؛ قال الشارح :

« كان ابو جبيل وهو عبد قيس بن خُفاف البرجمي اتى حاتماً في دماء حملها عن قومه اسلموه فيها ، وعجز عن ادائها فقال: « والله لآتينّ من يحملها عني » . وكان شاعراً شريفاً . فاتى حاتماً فقال: « انه قد كان بين قومي دماء فتراكلوها ؛ واني حملتها في مالي وابلي ؛ فقدّمت مالي ، وكنتَ أملي . فان تحملها فربَّ حقٍّ قد قضيته وهمٍّ قد كفيته ؛ وان حال دون ذلك حائل لم اذمم يومك ، ولم أيئس من غدك . ثم انشأ يقول :

حملت دماء للبراجم جمّة ، فجئتك لما اسلمتني البراجمُ
وقالوا سفاهاً : لمَ حملت دماءنا ؟ فقلت لهم: يكفي الحمالة حاتمُ »

فقال له حاتم : « ان كنت لأحبُّ ان يأتيني مثلك من قومك . هذا مرباعي من الغارة على بني تميم (ولا يخفى ان البراجم من تميم) فان وفت الحمالة ،

[1] القرآن ٢ [سورة البقرة] ١٧٥

والا كلتها لك . وهي مائتـا بعير سوى نيبها وفصالها. مع اني لأحب ان لا توبس قومك بأموالهم . » (قال) فضحك ابو جبيل ثم قال : « لكم ما اخذتم منا ، ولنا ما اخذنا منكم ، وايما بعير دفعته اليّ ليس له ذنب في يد صاحبه فانت منه بري.. » فأخذها منه وزاده مائة . »[1]

هذا الكرم الحاتمي لم يسغه بيرون ، فقال: « انها لطريقة غريبـة في فهم الكرم والاحسـان . »[2] ... على ان بيرون نفسه يتابع شارحاً نشأة الثارة في بلاد العرب فيقول : « ان الثارة لازمة في القفر وما تجرّه من تلـك الهجمات الدالة على الفروسية . هذه هي الحياة المنظّمة . اذ لولاهـا ، ما عسى ان يفعل الانسان في تلك النزلة الصامتة ؟ » ولا يخفى ان الشرح اقرب الى الـدعابة والعبث . على ان تلك النزوات كانت ابعد الاشياء عن التسلية التي يتصوّرها بيرون ، اذا ما سُفكت الدماء .

وليتنبه الدارس ، اذا ما فكّر بالثأر ، الى ما يبذله اولـئك المتاركون من جهود في اجتناب الضربات القاتلة . هم لا يقصدون ، في غـاراتهم ، الا اموال المثار عليهم . امـا حياتهم فليس مَن يرغب في الاعتداء عليهـا . ولا ينبغي للهاجين ولا للمدافعين ان يصلوا الى اهراق الدم . هو عراك على المواشي يقومون به بغاية ما يمكنهم من رباطة الجأش . ولنا من الامثلة المتعدّدة ما يؤيد هذا القول ؛ فان حوادث الجرح والقتل قليلة جداً في النزوات حتى في ايامنا هذه ، بعد ان اخذ البدو يستعملون البنادق الحديثة . فهناك كثير من دخان البارود ودويّ الرصاص ، وقليل من الجرحى والقتلى . اما اذا ادّتهم الحوادث الى سفك الدم ، فيكون الحظ قد خانهم ، ففقدوا السكينة اللازمة في هـذه المعارك ، واندفعوا باندفاع اعصابهم الثائرة ، فنسوا صفتهم الاصلية وتحوّلوا الى مقاتلين[3]. على ان العادة الجارية حينذاك تفرض على الضارب الا يجهز على الجريح ، والا يسلب القتيل[4].

---

١) ديوان حاتم ، ص ٤٠ — ٤١

٢) Perron, *Femmes arabes*, p. 114

٣) الطب *Le Berceau de l'Islam* I, 240

٤) الطب حادثة صخر ، اخي الخنساء ، في الاغاني ١٣ : ١٣٥ ...

اما في ما خصّ الثأر ، فان البدوي يطيع العادة الجارية التي اصبحت من مظاهر « دين العرب » كما يفهمه الجاهليون . ومن ثمّ فان هذه العاطفة وحدها تسيطر على « وليّ الثأر » او « الموتور » وهو صاحب الحقّ الشرعي بالاقتصاص من القاتل . وتكون الغاية المثلى ان يتمكن الوليّ من القيام بواجبه بسرعة ، فيقول مع عبد الله بن سلمة الغامدي :

نقمت الوِتْرَ منه ، فلم أُغَمِّ ، اذا اُبْصِحت يَنْبَّطَه جنوب (١

على ان هذه السرعة في الانتقام لم تكن في الغالب الا وهمية . فقد يعزّ على الموتور الاشهر بل السنون ، بل قد « يناله الصلع » ، كما في قول ربيعة بن ابي عمرو القيني[٢] ، قبل ان يدرك ثأره . فهو خالٍ من الحماسة في القيام بهذا الواجب ، لانه يرى ما سيعترضه من مخاطر يمدّدها سرًّا[٣] فينفر من مجابهتها . الا انه يشعر بضرورة القيام بواجبه ، فيحتال في ذلك ، لاجئاً الى الدوافع الخارجية من تحريمات ونذور وايمان وما اليها من قيود فصلناها في ما تقدم. ولا يسهو باله عن ان يضيف اليها الرجاء بان لا يميته الله قبل ان يدرك ثأره . فهو اذاً يوسّع على نفسه في البرّ بهذه اليمين ، بينما يصرخ وينادي بان همّه في ادراك الثأر ثقيل كالجبل يمنعه لذة العيش والشراب خاصة .

واذاً فان الموتور لا يُسرع متحمساً الى قتل واتره و« شفاء غليله » ، كما قد تصوّره بعض الحكايات الشعبية المتأخرة عن العصر الجاهلي . بل اننا نراه يتمرمر من حمل هذا الواجب ، واذا قبله فلأنّ لا مناص له منه ، ولان العادة والرأي العام وارادة القتيل نفسه تفرض عليه ذلك ، فهو يقبله كاثقل الواجبات الدينية ، ويهتف مستثقلاً مع امرئ القيس عندما أُخبر بقتل ابيه : « حمّلني دمه ! » هو حمل باهظ يحول بين الموتور وملذّات الحياة المادية ، يحول بين امرئ القيس والخمر ، لا بسبب ما يوليه اياه من الحزن والاسى وحرمان العطف

١) المفضليات (طبعة Lyall) ص ١٨٥ البيت ؛
٢) راجع الصفحة ٨ من هذا البحث
٣) ابن هشام : سيرة الرسول ، ص ١٢٢ ، ٤

الابوي — ولا عطف في حالة امرئ القيس ، وقد طرده ابوه وخلعه — بل لما يفرضه عليه هذا القتل من ضرورة التقيد بالحرمانات التي من شانهـا ان تدفع الموتور الى القيام بطلب ثأره . تتحول ذاك الاناني الفردي الى كائن اجتماعي يُدفع ، على الرغم منه ، الى التضحية بشهواته وبراحته في سبيل الاسرة والجماعة. والا فانه يتعرض لغضب الالهة النازل بكل حانث بالايمان المغلظة وهي التي لا تحتمل الكفارة ، ولا تحلّ صاحبها الا اذا قام بما يفرضه عليه « الوتر المظلم » ، فيعود حين ذاك الى حياته السابقة فيستبيح ، دون اثم ولا حرج ، كل ما كان قد حرّمه على نفسه ، ويكتسب ، فوق ذلك ، « شرف الدهر .»[1]

اما اذا تهامل في القيام بهـذا الفرض ، او خالف مادةً من موادّ هـذه الشريعة ، او لم يبرّ بهذه الايمان ، فانه يقترف « إثماً من الله » ، كما يقول . ولنا ان نعجب اذ نسمع من فم البدوي ما يدلّ على شعوره بالمسؤولية الادبية ، بل بالخطيئة اللاهوتية . ذاك انه يتقيد بعادة الثأر ، ويفهم ضرورة هذا الواجب في سبيل التكفير عن اثم لحق اثره المجتمع العائلي بكامله . في الثأر شفاء نفسه المقروحة ، وبرء دائه الدخيل ، على نحو ما قال العبسي :

دعوت الله اذ قدنا اليهم ، لنلقى منذراً ، او عبدَ عمرو
وكانت حلفةً حُلفت لوترٍ ، فشاء الله ان ادركت وتري
واني قد سلمت ، فكان برئي بفرواش بن حارثة بن بدر

وقد علّق الجاحظ على هذه الابيات بقوله : « والاعراب تعدّ القتل سقماً وداء ، ولا يبرئه الّا اخذ ثاره دون اخ او ابن عم . فذلك الثأر المنيم .»[2]

ولهذا نراه يشجع نفسه ويحثها بكل ما لديه من وسائل شعورية ، وبكل ما في منطقه من حكم قصيرة سائرة . فيقول لها تارةً قول عمرو بن الاطنابة :

واقدامي على المكروه نفسي ، وضربي هامة البطل المشيح ،
وقولي، كلما جشأت وجاشت : مكانك ، تحمدي او تستريحي ![3]

وطوراً يعزّيها بقول ابي النيران :

---

١) الاغاني ٨ : ٦٧
٢) الجاحظ : الحيوان ٦ : ١٤٤
٣) الجاحظ : الحيوان ٦ : ١٤٣

ان السُراة قصيرةُ الاعمار ! (١

ودائماً يردّد عليها بلسان الشعراء كافةً ان ادراك الثأر افضل دلائل الشجاعة والوفاء ، بل هو افضل الوسائل لبناء المجد الخالد ، ونيل شرف الدهر .

فلا عجب ، والحالة هذه ، ان نرى البدري الموتور لا يسمع لهو الحديث ، ولا يأوي مطمئناً الى فراشه :

لا اسمع اللهو في الحديث ، ولا ينفعني في الفراش مضطجعُ (٢

واذا عرض له الابتسام فذلك على الرغم من نفسه الحزينة :

اعاتب نفسي ، ان تبسمتُ ، خالياً ! وقد يضحك الموتور ، وهو حزين (٣

فلا يكاد يعرف الراحة والهجوع ، انما يقضي الليل مضطرباً يرقب النجوم في سيرها البطيء[٤] ، ولا همّ له الا العمل على ادراك ثاره . فهو يجتنب ، في ذلك ، قول الشعر نفسه حتى الهجائي منه[٥] ، لان ما بينه وبين الواتر « اجلّ من القذع » على قول صخر اخي الخنساء[٦] . ولا نكاد نخطئ اذا قلنا انه يخشى ان يفرّج الهجاء كربته ، فيضعف ارادته ، ويوهن من عزيمته في ادراك الثأر فتبقى نفسه في سقامها ، وهي لا يشفيها الا الدم ، كما تقدّمنا . وقد يبلغ من قوّة هذه الرغبة في « شفاء الغليل » ان الموتور قد يُنكر على الله حقّه في الحؤول بينه وبين ثاره[٧] . على انه يرى الحقّ لاعدائه في ادراك ثأرهم ايضاً . وقد نرى بعض السادة من ذوي الاخلاق العالية ، اذا لم يعرف الموتور واتره ، اقرّوا باشتراكهم في القتل فيّتروا انفسهم هدفاً لسهامه[٨] . بيدَ ان هذا الاقرار لا يأتي عفوًا . انما يرمي اليه الموتور بواسطة « العزية » و« المناشدة » ، وهما من نوع

١) الجاحظ : الحيوان ٦ : ١٤٢

٢) البيت لمالك بن عمرو العاملي ، في حماسة البحتري ١٦٨

٣) البيت لخلف بن خليفة ، في حماسة ابي تمام ص ٤٠٤

٤) هي صورة كثيرًا ما ردّدها الشعراء . اطلب مثلا حماسة البحتري ١٤٩—١٥٠ ؛ الاغاني ١٤ : ٢ ؛ ديوان حاتم الطائي ٢٩ : ٢ ؛ سيرة ابن هشام ص ٧٢٨ ؛ المفضّليات (Thorbecke) ص ٤٦ ؛ ديوان النابغة ٣ : ١ الخ . . .

٥) على ان النساء قد يدخلن الهجاء في الرثاء احيانًا ، وراجع ديوان حاتم الطائي ٣٤ : ٤

٦) الاغاني ١٣ : ١٤٥

٧) ابن هشام : سيرة الرسول ٨٠٣

٨) الاغاني ١٣ : ١٤٥

تحليف اليمين التي يُشرك فيها اسم الله ، ولا يجرأ احد من البدو على الكذب فيها .

***

اعتباراً من حلف اليمين ، تُصبح كل الوسائط ، التي يقوم بها البدوي في سبيل غايته ، صالحةً لا اثم فيها ولا حرج ، مهما كانت ومهما اشتملت عليه من غدر وخيانة واحتيال . الغاية تبرّر الواسطة في مادّة الثأر . انها تبرّر لا اعمال وليّ الثار فحسب ، بل اعمال كل من اجاره وعاونه في طلب ثأره ، كما رأينا في حادثة قيس بن الخطيم وغيره . يجول الوليّ بكل طمأنينة ، في احياء العرب ، مفتشاً عن ضحيته ، فيطوف الأسواق والمجتمعات ، ويدخل المضارب ، ويختلط بالناس ، حتى اذا ظفر بواتره ، انقضّ عليه ، على حين غفلة ، فقتله ، وان نائماً ، خلافاً لما كان قد تقرّر في عاداتهم من التأثم من قتل النائم ، وان عدوّاً[1] . ذلك ان شريعة الثأر فوق تلك العادة فهي اجدر الشرائع بالاحترام في دين العرب ، لانها ابعدها عن الانانية والمنفعة الشخصية . وقد عزّز ذلك الشعراء ، وهم حكماء البدو والسنة فقههم ولاهوتهم .

بيد ان ولي الثأر قد يتردّد في تنفيذ قصده ، اذا خاف ان يخالف مبدأً دينياً آخر ، كأن يخشى ، اذا ما قام بثأره ، ان يخفر ذمة الجار ، او ينتهك حرمة المعبد ، او الاشهر الحرم ، او حرمة قبر مكرّم جُعل ملجأً وملاذاً . عند ذاك يحصل اشتباك بين مبدأين دينيّين ، فيحار البدوي في ايهما يتبع . وان في الروايات القديمة امثلةً عديدة للحلول المختلفة . منها ما تدلّ على تقدّم الحقّ بالثار ، ومنها ما تفيد التراجع فيه تجاه حرمة الجوار او تلك الحرمات التي ذكرناها . من الاولى ما حصل للحارث بن عُباد ، عندما اتاه واتره بابن اخيه ، وهو لا يعرفه ، فاحتال في الحصول على الجوار ، فنجا من الخطر[2] . ومن الثانية ما نراه من حوادث متعدّدة قتل فيها اولياء الثأر واتريهم في الاسواق التي

١) راجع الاغاني ١٣ : ١٣٠ ؛ ابن هشام : سيرة الرسول ، ص ٢٢٦ ، ثم ص ٦٥٠ .
٢) ابو تمام : الحماسة ، ص ٢٥٤

كانت تنعقد في الاشهر الحرم، بل في البيت الحرام نفسه[1]. وقد جاء في المفضليات:

قتلنا قتيلاً مهدياً بملبد بجار بني وسط الحجيج المصوّت

وقال الشارح: «اي قتلنا رجلاً محرماً برجل محرم.»[2]

وفي ما عدا هذه الظروف الاستثنائية، فان العادة تجوّز كل ما يقوم به الموتور في سبيل ثأره من غشّ، وخداع، ومداهنة، ومجاملة للاعداء حتى تمكن الفرصة. وهذا البحتري يفرد في حماسته بابين لهذا الموضوع عنوانها: «الباب الرابع: فيما قيل في مجاملة الاعداء وترك كشفهم عمّا في قلوبهم»، و«الباب الخامس: فيما قيل في الاطراق حتى تمكن الفرصة.»

فللبدوي، والحالة هذه، ان يظهر الابتسام لخصمه ويجامله، على امل اغتياله:

اكاشر ذا الضغن المبيّن منه، واضحك حتى يظهر الناب اجمعُ
وادهنه بالقول دهناً؛ ولو رأى سريرة ما أخفي، لبات يُفزَّعُ[3]

ولا اثم عليه اذا اظهر ميله الى القبول بالدية حتى يقترب من واتره فيقتله[4]، بل قد يقبلها فعلاً، ويظهر الصفح حتى اذا امكنته فرصة وثب[5]. أمّا اذا كان الواتر متيقظاً متحفظاً حتى لا يمكن قتله، فلا بأس على الموتور اذا تغلغل خلال الجماعة فيصل اليه على حين غفلة؛ بل لا بأس عليه، كما يظهر من عدة حوادث، اذا ما التجأ الى الواتر نفسه، فعاش في جواره الشهور بل السنين طاوياً كشحه على المداوة حتى تمكنه الفرصة. يشهد بذلك قول الاخنس بن شهاب التغلبي:

لعمري، لقد جاورت في حيّ عامر لأدرك ثأري منهم، حججاً ثما
ابيت، اذا نام الخليُّ، كأنني سليمُ افاعٍ لا يلاقي لـه أنـا

---

١) مقدّمة ديوان قيس بن الخطيم؛ ابن هشام: سيرة الرسول ص ٨٦٥–٨٦٦

٢) المفضّليات (Lyall) ٢٠٥، البيت ٢٧

٣) البيتان لمن بن أوس في حماسة البحتري، الرقم ٤٤؛ واطلب كذلك الارقام ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٥٣

٤) المفضّل: الفاخر (Storey) ص ٢٢٠–٢٢١.

٥) ابن هشام: سيرة ص ٧٢٨

ولما رأيت الثار قد حيل دونه ، مشيتُ لهم قطوّاً، وكنت لهم جاسا
ولاحظت ثأري فيهم لاتناله ! متى ما أنله أشف من عامر نفسا (١

وقد فات پيرون ، دون شكّ ، ان ينتبه لهذه الحادثة ولكثير مثلها، والا لما اقدم على كتابة ما كتب من ان «الفروسية كانت مزدهرة ، في بلاد العرب ، بكل جمالها وكل اخلاصها ، قبل بدء تاريخنا ، بعدة قرون ، وانها اخت الفروسية الغربية الكبرى. . .وان الفروسية في الغرب عارض متقلد . اما في بلاد العرب فهي مبدأ .»(٢) قلنا: وسواء اكانت الفروسية العربية مبدأ ام لا ، فلا يمنعنا ذلك من التحقق ان الموتور لا يخجل من الالتجاء الى هذه المخاتلة الواضحة الجارّة الى الخيانة والغدر ، واين هذا من مبادئ الفروسية الغربية ؟ بل ان البدوي يفتخر بتلك المخاتلة ، ويوصي بها :

والنَّ اخا الضغن بإيناسه لتدرك الفرصة في أنسه
كالليث لا يعدو على قرنه الا على الامكان من فرسه (٣

وقد ظلت هذه العادة متأصلة في طبيعة البدوي ، على رغم الاسلام ، مدة طويلة . حتى ان عبد الملك بن مروان ، عندما ظفر بعدوّه عمرو بن سعيد الاشدق ، فقتله ، لم يعدُ في شيء طور اولئك الثائرين قبل الاسلام ، فقال:

أدنيته مني ليسكن نفرُه فاصول صولة حازم مستمكن
غضباً وحمية لديني ، انه ليس المسيء سبيله كالمحسن (٤

هذا ولا يمكن ان يموت الثأر بمرور الزمن . فان هذه القاعدة الشرعية لا يعرفها البدو . انما يعرفون ويرددون :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات الصدور كما هيا

بل انها _ _

كالزر يكمن حيناً ثم ينتشرُ

وتظلّ حقوق الثأر دائمة يورثها الآباء البنين :

فلن تبيد وللآباء ابناء (٥

١) حماسة البحتري رقم ٥٦
٢) Perron, Femmes arabes, p. 76
٣) حماسة البحتري : الرقم ٥٥
٤) حماسة البحتري: الرقم ٣٠ ؛ المسعودي: مروج الذهب ٥: ٢٢٧ ؛ الطبري ٢: ٦٦٥
٥) راجع حماسة البحتري : الباب السادس ، الارقام ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١

وهذه حرب البسوس دامت اربعين سنة في سبيل الاخذ بثأر كليب. ثم ان العقلاء سعوا بالصلح ، فتظاهر ولي الثأر بالاذعان ، ومشى شاكي السلاح حتى اذا صادف واتره جناساً ، صاح : « لا يترك الرجل قاتل ابيه ، وهو ينظر اليه . » ثم طعنه فقتله ، ولحق بقومه . « فكان آخر قتيل في بكر بن وائل » ، على قول الاغاني[1] ، لان بقتله أدرك الثأر .

ولنا شواهد على هذا الامر في اقوال بعض الوفود التي كانت تفد على محمد . فان منها من كان يؤخر اقراره بالاسلام الى ما بعد الفراغ من حوادث الثأر المعلقة . وكان من رجال الوفود من يُظهر ترك تلك العادة الجاهلية فيسرع بقبول الاسلام ، بل يقبل الدية دالاًّ بذلك انه عدل عن ثأره ، كما فعل مِقيس ، حتى اذا صادف واتره مطمئناً طعنه في ظهره .

ولا غرابة في ذلك فقد قام مِقيس بفرائض الدين القديم . وهكذا فعل عبد الملك بن مروان في الحادثة التي قدّمنا ذكرها ، بعد خمسين سنة من انتشار الدين الجديد . ولم يغفل مقيس ولا عبد الملك ان يفتخرا بعملهما فيذكراه بالشعر ، وهما لا يتوقعان لوماً ولا استغراباً من الرأي العام . والرأي العام ابعد من ان يلومهما . بل هو ، اذا عرض لهذه المسألة ، يقول ما قالته اخت مِقيس في هجو نُميلة ، نسيبها الذي شاء ان يعاقب اخاها على فعلته الشنعاء وخيانته المزدوجة فصرخت انه « اخزى قومه ! » . ولماذا ؟ لانه جعل حقوق الفرد ، القتيل ، فوق حقوق القبيلة ، قبيلته وقبيلة مقيس القاتل ، وهو امر لا يعرفه العرب ؛ فالمجرم ، في نظرهم ، ليس مِقيس الخائن الغادر ، بل نميلة لانه « اخزى قومه » .

ولم يلبث هذا الفخر بادراك الثأر ، حتى بالغدر والخيانة ، ان حوّر شيئاً فشيئاً نظر العرب الى الدية ، فاصبحوا يعتبرونها حاطّة بين يقبلها ، ولا يرضون الا الدم بالدم ، ويحتجون جميعاً بلسان ابي أذينة :

أتحلبون دماً منّا ، وغليتم رسلاً ؟ لقد شرفرنا في الورى حلبا

مفتخرين بلسان عبد العزى بن مالك الطائي :

اذا ما طلبنا قتيلنا عند معشر ، أبينا حلاب الدرّ ، او نشرب الدما

---

[1] الاغاني ١٠ : ١٥١

ليعلم اقوام مضامنة وترنا ، وتتبع ذات السلم من كان أزما
وعمدا تتلنا ، بعد ما عرضوا لنا مصارعهم كثئا ، والقا مرغما (١

وهكذا اصبح قبول الدية ذليل الضعف واللوم، ومن ثم فهو مادة للهجاء.

قال الاخطل :

لا يثأرون بقتلاهم ، اذا قتلوا ؛ ولا يكرّون يوماً عند اجحار (٢

يريد انهم يرضون بالديات

قبول الدية تعدٍّ على دين العرب ، ومظهر من مظاهر الجبن ، والانانيـة ، والمنفعة الخاصة . هو مساومة آثمـة على الاواصر التي تربط الاسرة ؛ هو بيع الدم بالتمر ، على قول الحُريث بن زيد الخيل :

قتلنا بقتلانا من القوم عصبـةً كراماً ؛ ولم نأكل بهم حشفَ النخلِ (٣

ولهذا غدا الشعراء من الموتورين ، او الذين يحتسونهم من رجال ونساء ، يصوّرون القتيل يوصي اولياء ثأره بالا يقبلوا الابل بدل الدم :

وارسل عبدالله ، اذ حان يومه ، الى قومه : الا يعقلوا لهم دمي
ولا تأخذوا منهم إفالاً وابكراً ، واترك في بيتٍ بجمدة مُظلمِ (٤

...

الا لا تأخذوا لبناً ؛ ولكن اذيقوا قومكم حدَّ السلاحِ
فان لم تثأروا عمراً بزيدٍ ، فلا درّت لبون بني رباحِ (٥

يُقسم المحتضر على شاهدي موته ، بل على انسبائه جميعاً حاضرين كانوا ام غائبين ، بالايمان المغلظة بان يدركوا ثأره باهراق الدم . فيقبلون ذلك ، فيكون نذراً عليهم[٦]. كما فعل داود الملك ، وقد شعر بالموت ، فدعا بابنه سليمان ، وكان من جملة ما اوصاه به ان يُنزل العقاب بمن فات المائت عقابه من الواترين قال : « ... ثم انك تعلم ما صنع لي يُوآب بن صَروية ، ما صنع برئيسي جيوش اسرائيل أبنير بن نير وعماسا بن يَاتر حيث قتلهما وسفك دم الحرب في السلم ،

١) حماسة البحتري : رقم ١١٢ ٢) ديوان الاخطل (صالحاني) ص ٣٢٦
٣) حماسة ابي تمام ، ص ٢٨٦ ، البيت ٢
٤) حماسة البحتري : الرقم ١١٠ ٥) حماسة البحتري : الرقم ١١١
٦) حماسة ابي تمام ص ٤٤١-٤٤٣

وجعل دم الحرب في منطقته التي على حَقويه وفي نعليه اللتين برجليه ؛ فاصنع به بمقتضى حكمتك ، ولا تدع شيبته تنزل الى الجحيم بسلام . . . وعندك شمعي بن جيرا من بني بنيامين من بحوريم ، وهو الذي لعنني لعنةً فظيعةً يوم انطلقت الى محانيم ؛ ثم نزل للقائي عند الاردن ، فحلفت له بالربّ اني لا اقتلك بالسيف . والآن فلا تبرّئه ، فانك رجل حكيم ، فاعلم كيف تصنع به وانزل شيبته بالدم الى الجحيم . »[1]

وكذلك لم يكن البدو ليفهموا معنى لمرور الزمن ، ولا للعفو ؛ بل لم يكونوا ليتصوّروا امكان ذلك ، لفرط ما وقر في نفوسهم من فروض شريعة الثأر الدينية.

لقد اتهم بنو خُزاعة ، قبيل الهجرة ، وهم منافسو القرشيين ، بقتل الوليد سيد بني مخزوم . وكان الوليد قبل ان يفيض بروحه ، قد رفع عنهم تلك التهمة . على انه لم يمنع ابناءه طلب ثأره من خُزاعة . ولماذا ؟ لأنه خشي ، اذا لم يطالبوا بثأره ، « ان يُسبّوا به بعد اليوم »[2].

وان هذا الحادث يدفعنا الى الكلام عن « الوصية » وفيها ما يؤيد نظريتنا في صفة الثأر الدينية . ولنبدأ بان ننفي كل شبه بين هذه « الوصية » الجاهلية و« الوصية » القرآنية المعمولة في الشرع الاسلامي . اما الوصية الجاهلية فقد لاحظ ولهوسن انها « اقرب الى الاوامر والنواهي المطروحة على الورثة منها الى تقسيم الميراث بينهم . »[3] على ان هذه الملاحظة غير كافية . فلنزد عليها ان غاية الوصية المهمة كانت دينية محضة . كانت ترمي الى نقل نظام العبادة ، من الاب الى اولاده ، كما كان معروفاً ومتبعاً في القبيلة ؛ محتويةً على « العهد الروحي » او مجموع العقائد والعبادات يلقيها السلف على خلفائه . وقد كان لكل قبيلة وصيتها الخاصة ، على زعمها ، يحترمها افرادها ويذكرها شعراؤها . على ان ما قام به علماء العصور الاسلامية من اصلاح في الادب الجاهلي القديم ، وما صنعه الرواة

---

١) سفر الملوك الثالث ٢ : ٥ — ١٠ ٢) ابن هشام : السيرة ص ٢٧٣

٣) Wellhausen, *Reste*... p. 191

من الشعر المنحول افسد ، لسوء الحظ ، قيمة تلك الوثائق القديمة ؛ ولم يبق منها الا ما استند الى الحكم والتوصيات المبتذلة[١] . هـذا اذا لم يضع الناحلون قطعاً كاملة في سبيل تشويه تلك العصور التي نسبها الاسلام الى « الجهل » . وان يكن النبي يفرض على المسلمين الاهتمام بكتابة « وصيتهم » ، وان يكن يدقق في ذلك حتى يجعلها من فروض الوحي الالهي ، وهو معنى « كُتب عليكم »[٢] ، فذلك دليل على بعد نظر في المشترع الرامي الى تحقيق الامور في مجالها العملي ؛ ولكنه دليل كذلك على اهتمام جدّي بمحو ذكرى تلك « الوصية » البدوية الجاهلية وما تجرّه من آثار الشرك القديم .

كان افراد القبيلة يجتمعون حول فراش الشيخ الراحل ، كما كان بنو اسرائيل يجتمعون حول الجدّ المحتضر[٣] ليسمعوا آخر كلماته فيحفظوا «وصيته» قاصدين القيام بكل ما فيها . وكان يهمّ الجدّ ، وهو رئيس قومه وكاهنهم ، فضلًا عن تقسيم الميراث ، ان يعمل على متابعة العبادة التقليدية . فكان يعيّن من خلفائه من يعهد اليهم بحفظ « القُبّة » وهي المظلة المقدسة ؛ وبسدانة « البيت » وهو هيكل القبيلة ؛ وبحراسة الحجر المؤلّه[٤] . فيكون هذا الرجل « الوصيّ » اي الوارث الديني . وقد نرى شيئاً من هذا المعنى القديم للوصية ، في معتقد الاماميين من الشيعة ، وهم يعتبرون عليًا « وصيّ » النبي ، لا وارث ثروته وخلافته السياسية فقط ، بل صاحب « وصيّته » الدينية ، او خليفته في عقيدته السرّية . اما الائمة الاثنا عشر عندهم فهم اوصياء « الوصي » ، وارثو علم علي

---

١) راجع السجستاني : كتاب المعمّرين ، ص ١٦ . . . ومقدمة گولدسيهر عليه ، ص ١٩ ايضاً . وقابل بوصية قس بن ساعدة في السيوطي : موضوعات ١ : ٦٦ . ولا يخفى ان اصحاب تلك الوصايا يظهرون ، على الغالب ، من المعمّرين ، وقد يزعم الرواة انهم عاشوا عدة مئات من السنين . ابن دريد الاشتقاق ص ٢٢١ ؛ والمفضليات (Thorbecke) ص ٢٥

٢) القرآن ٢ [البقرة] : ١٧٦ ، وفي لغة القرآن « كتاب = وحي

٣) راجع سفر التكوين : ٢٨–٢٩ ؛ والمفضليات (Thorbecke) ص ٢٥ ، البيت ٧ . . . حاتم الطائي : ديوانه ٩ ؛ وابن سعد : الطبقات ١ : ٨٢

٤) الطلب بحثنا في : *Le culte des bétyles et les processions religieuses chez les Arabes préislamites*, dans *l'Arabie occidentale avant l'Hégire*, p. 135-136

الفائق[1].

واذا رجعنا الى الجاهلية نرى الشواهد المختلفة على مدلول «الوصية» الديني . وهذا الشاعر عباس بن مرداس ، يتسلم من ابيه ، بفضل الوصية ، الحجر المؤله ضماد او ضمار[2] فيحافظ عليه . ولقد كان الشيخ الراحل يوصي ايضاً بالمحافظة على الجوار ، والبرّ بالعهود . وكذلك كانت الوصية تهتمّ بحل ما بقي من مشاكل الدم قيد الثأر[3] ، كما رأينا في وصية داود الملك لابنه سليمان . وهي «ولاية الاشياخ»[4] لا بدّ من القيام بها . ولهذا كان جميع الحاضرين يُقسمون بقبولها و«ينذرون» بان يقوموا بها . يدفعهم الى ذلك «العزمة» باسم الله ، وخصوصاً خوفهم من التعرّض لدعوة الشيخ الراحل . وهم يعتقدون ان الشيخ ، اذا ما حضره الموت ، كان «مجاب الدعوة»[5] ولاسيما ما كان منها بالشرّ . وكان القتيل ، قبل ان ينزل «بيته»[6] الاخير ، يعزم على حاضري نزاعه الا يتركوه ، دون ثأر ، في بيتٍ مظلم :

واترك في بيتٍ بسَمْنَدةَ مُظلمِ[7]

ومن هذا ما جاء في حماسة ابي تمام عن جُويّ المزني ، وقد قتله الخزرج بعيداً عن قومه ، فرفع رأسه ، وهو يجود بنفسه ، فقال ، مخاطباً احد الخزرجيين : «اعطي الله عهداً ليقتلنّ منكم خمسون ليس فيهم أعور ولا أعرج» . فسارت كلمته حتى بلغت مزينة فاخذوا بثأره . وفي ذلك يقول كعب بن زهير ، وفيه اشارة الى كل ما تقدّم ذكره من راجب القيام بوصية الميت ، ووفاء النذور ،

---

١) راجع كتابنا في *Fâtima* ... p. III

٢) لم تضبط اللفظة ضبطاً صحيحاً ؛ راجع : صحيح مسلم ١ : ٢١١ ؛ اسد الغابة ٣ : ٤١ ؛ سيرة ابن هشام ص ٨٢٢ ؛ الاغاني ١٣ : ٦٥ ؛ وقابل بما ورد في Welhausen, *Reste*, p. 66

٣) سيرة ابن هشام ص ٣٧٢ ؛ الاغاني ١٩ : ١٣٠

٤) ديوان قيس بن الخطيم (Kowalski) ١ : ٤—٥

٥) اطلب في ذلك كتابنا *Mo'âwia* p. 180-181

٦) راجع في معنى بيت = قبر بحثنا *Le culte des bétyles*, p. 144 ؛ ديوان لبيد (الخالدي) ص ٧٧ ، البيت ٢ ، و٧٨ ، البيت ٢ ؛ ديوان حاتم ٣٧ : ١٥ ؛ والمفضليات ١٩ : ٢٢

٧) حماسة ابي تمام ص ١٠٧ ؛ الاغاني ١٤ : ٢٥

وعدم الرضى بالدية :

لقد ولّى أليّته جُويٌّ معاشرُ غير مطلول اخوها . . .
ولو بلغ القتيلَ فعالُ قوم لسرَّك من سيونك منتضوها
لتذرك ، والنذور لها وفاء، اذا بلغ الترابيـة بالنوها . . .
فما عقر الظباء بحي كعب ، ولا الحسـون نصّر طالبوها . (١

***

اما في ما خصّ خلود النفس ، فلا تتحقق في فكر البدوي الا معلومـات غامضة . ولا نراه اهتمّ اهتماماً جدّياً بهذا المشكل . وهؤلاء شعراء الجاهلية ، اذا ما عرضوا لما بعد الموت ، يعبّرون بلهجة عابثة عن فكرة غير مستقرّة ولا دائمة الى الاهتمام . فيقول أوس بن حجر :

إنْ اشرب الخمر ، او ارزأْ لها ثمناً فلا محالة ، يوماً ، انني صاحي
ولا محالة من قبر بمحنية ، او في مليع كظهر الترس وضّاح (٢

ويردّد طرفة :

كريمٌ يروّي نفسه في حياته مخافة شربٍ في الممات مصرّد
نذرني اروّي هامتي في حياتها ؛ ستعلم ، ان متنا ، مدى أينا الصديّ ! (٣

وان يكن البدوي لا يعتقد الاعتقاد الواضح بحياة النفس في عالم آخر[٤] ، فهو لا يرى ان الموت يفصل حالاً بينه وبين جسده . ولهذا نرى انهم يضعون الميت « موسّداً » او « متوسّداً »[٥] في قبره ؛ اي متكئاً رأسه على زنده المبسوط خلف عنقه ، كما كانت عادته ان يستريح في الليل . وهم لا يحبونه في تابوت ، اذ يعتقدون انه نائم في « بيته المظلم » نوماً اعمق من النوم العادي ولكنه لا يفقده الشعور التام بل يسمح له بشيء من الحسّ الضئيل على مدة ما . ثم يندفعون ، في سبيل معاونة هذا الحسّ الضئيل ، واطالة مدّته ، الى القيام

١) حماسة ابي تمام ص ٤٤١–٤٤٣ ٢) ديوان اوس بن حجر ٤:٨–٩
٣) ديوان طرفة (Seligsohn) ١ : ٦١–٦٤
٤) راجع في ذلك المسعودي : مروج الذهب ٣ : ٢٠٦ . . .
٥) حماسة ابي تمام ص ٤٢٩ ، السطر ٢٢ ؛ ٤٥٩ ، البيت ٢ ؛ ديوان حاتم ٢٨ ، البيت ٧ ؛ المفضليات (Lyall) ص ٦٢ ؛ الاصمعيات ٦٣ : ٨ ؛ ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز (طبعة عُبيد) القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٤١ الخ . . .

بكثير من مظاهر الجلبة الدالة على الاسى ، كالمنادب والمناحات المستطيلة على بضعة ايام ، والطواف المزدوج ، والهتافات العالية بقولهم : « لا تَبعد ! » وصراخ النساء الحاد كانهنّ يرغبن في تأخير مدة الانفصال التام بين الروح والجسد ؛ بينا يقوم الرجال بالمواعيد والايمان المغلّظة بالاسراع في الثأر - هذا من الاهل والاصدقاء . اما الاعداء فانهم ، اذا ما قتلوا العدوّ ، يسرعون في فصل نفسه صارخين مردّدين : « ابعد » ، وهي اعظم دعوة واهول لعنة تقع على العربي المائت . من ذلك قول حاتم :

وحتى تركت العائدات يعدنه يقلن : « لا تبعد ! » وقلت له : « ابعد ! »

وكان من تأثير هذا الاعتقاد ان البدو كانوا ينفرون من « المثلة » نفورهم من افظع الشرور ، والمُثلة تشويه جثة القتيل بعد قتله . وبتأثير العقيدة نفسها ، كانوا ينفرون كذلك من قبول شرعية حدّ السارق الذي سنّه القرآن[1] ، وهو قطع اليد[2] . اما حريق الجثة فكان من نتيجته ، في نظرهم ، ان يفصل حالًا بين النفس والجسد[3] . وقد تسرّب هذا الاعتقاد الى التقليد الاسلامي ، فمنع « الحديث » حرق المجرمين ، لان عذاب النار[4] من خصائص الله وحده[5] .

وفي امكان المزنى ان يقبلوا وداع ذويهم ، كما انهم يسرّون من تحية

---

١) القرآن ٥ [المائدة] ٤٢

٢) ومن هذا القبيل ما يصح به بعض اتقياء المسلمين من عدم اجراء العمليات الجراحية ، لانه ليس من اللائق ، في نظرهم ، ان يتقدم الانسان ، يوم القيامة ، وهو اقطع او اعرج . . .

٣) A. Mez, *Die Renaissance des Islâms*, Heidelberg, 1922, p. 350

٤) راجع كتابنا *Yazid I*, p. 475 ؛ الذهبي : ميزان ٢ : ٢٦٧ ؛ اسد الغابة ٥ : ٥٢ ؛ الجاحظ : الحيوان ٥ : ٣٢ وقابل ٦ : ١٤٦ ؛ النسائي : السنن ٢ : ١٧٠ ؛ سيرة ابن هشام ٤٦٩ ؛ ابن عساكر : تاريخ دمشق (بدران) ٥ : ١٠٢

٥) على ان هناك بعض كبار المجرمين والزنادقة أُنزل بهم عقاب النار من امثال بابك الذي قُطعت اعضاؤه حيًّا ثم أُحرق بالنفط ، الطالب التنوخي : جامع التواريخ (Margoliouth) ص ٧٥ ؛ والحلّاج ، الطلب Massignon, *Al-Hallaj, martyr mystique de l'Islam*, I, Paris, 1922 p. 304, 312 ; A. Mez, *op. cit.* p. 209 ؛ وياقوت : ارشاد الاريب (Margoliouth) ١ : ٢٦٧ ، ٣٠٧

المازن[1] . وتظل نفوسهم عطشى في قبورها يرويها الخمر ، اذا كان اربابها من السكارى ، او الدم اذا كانوا قد قتلوا ، ولم يؤخذ بثأرهم بعد . وعلى هذا يدور الكثير من الشعر الجاهلي في ظمأ «الهامة» و«الصدى» كقول طرفة المتقدم ، وقول حاتم :

اماويّ ، اما متّ ، فاسقي بشُطبةٍ   من الخمر رِيّا ، فانضحنّ على قبري [2]

وما يروى عن الاعشى من ان الفتيان ، كانوا اذا جلسوا للشرب على قبره ، اعتبروه واحداً منهم فاهرقوا الكأس على تراب القبر ، اذا وصل اليه الدور[3] .

اما في « الهامة » العطشى للدم فنعرف الكثير من الشعر كقول ذي الاصبع :

يا عمرو ، ان لا تدع شتمي ومنقصتي   اضربك ، حيث تقول الهامة : اسقوني ! [4]

ولا يطفئ هذا العطش الا دم الواتر . اما اذا مات الرجل حتف انفه فيُستسقى الغمام على قبره . واذا مرّ المسافر بالقبر وقف فحيّاه ، او وضع عليه اغصاناً خضراء ، او ازهاراً طيّبة الرائحة ، وان لم يكن لديه شيء من هذا وضع حجراً[5] . ثم ان اهل الميت يزورون القبر من آن الى آن ، وقد ينصبون الى جواره مضرباً[6] يقيمون فيه دفعاً لضجر العزلة عن صاحبه . من هذا ما اوصى به عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، عندما اتته ساعته ، فالتفت الى ذويه وقال : « اقعدوا عند قبري . . . استأنس بكم . »[7]

وبناء على ما تقدم فاننا نفهم اي ذعر كان يستحوذ على البدوي اذا ما

---

١) حماسة ابي تمام ص ٤٠٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٨١ ؛ البخاري : الصحيح ٣ : ١٠١

٢) ديوان حاتم ٤٦ : ٧   ٣) الاغاني ٨ : ٨٦

٤) المفضليات (Thorbecke) ص ٣٢

٥) ديوان اوس بن حجر (Geyer) ٢٣ : ١٦–١٧ ، ٣٣ : ٥ ؛ ديوان لبيد (الخالدي) ص ٢٦ ، ديوان النابغة (Derenbourg) ٢٤ : ٢٦–٢٧

٦) الاغاني ١١ : ١٤٤ ؛ ١٥ : ١٣١ ؛ ١٩ : ١٠٨ ؛ الطبري ٢ : ١١٠٧ ؛ ابن حنبل : المسند ٢ : ٣٦٢ ؛ البلاذري (Ahlwardt) ص ٤٠ ؛ ديوان حاتم ٣٨ : ٤

٧) ابن عبد ربه : العقد ٢ : ٤ ؛ مسلم : الصحيح ١ : ٦٠

فكر بالموت بعيدًا عن قومه[١] ، فهو يصرخ طالباً بان لا يترك في « بيت مظلم » في محل قصيّ ، حتى وان كان من مشهوري الابطال كزيد الخيل ، او من دهاة الصعاليك كمالك بن الريب ؛ وذلك خوفاً من ان لا يجدوا :

سوى السيف والرمح الرديني باكيا !

وهو بكاه ، وان كان مادةً للفخر الشعري ، لا يكفي لتعزية الميت وايناسه في وحدته المظلمة !

للشنفرى ان يقول ، بتجرّده المعهود عن اهله :

اذا ما اتتني ميتتي لم أُبالها ، ولم تذرِ خالاتي الدموع وعمتي [٢]

وهو لا يهتم بان يبكي عليه اهله لانه لم يعتد حياة القبيلة ، بل عاش عمره متشرّدًا يفضّل الذئاب والضباع على قومه . ثم هناك سبب آخر . هو ان من واجبات النساء : العمات والخالات ، وسائر ذوات القربى ، ان ينحن على الميت نواحاً مستطيلاً كي يذكرن اولياء الثأر بواجبهم ، ويدفعنهم الى القيام بهذا الواجب . اما الشنفرى فلم يكن بحاجة الى هذا ، لانه كان قد سبق فثأر لنفسه الى ما وراء الحد[٣] . فلم يخف ما يخافه غيره من الموت في الغربة ، فالحرمان من الانتقام الذي يُطفئ ظمأ النفس العطشى ، ويوسع القبر المظلم[٤] .

***

هذا ما رأيناه جديرًا بالنظر في ما خصّ صفة الثأر الدينية . وسنفرد بحثاً آخر لما كان يقوم به نساء العرب خاصة في تحريض اولياء الثأر على القيام بواجبهم ؛ ولما كان يستغله الشعراء من تلك المواقف .

١) حماسة ابي تمام ص٣٩٥؛ ٤٠٨ . — ولم يكن العرب يثأرون للخليع . ومن ثمّ فقد كانوا يخشون هذا الحرم الذي يتبعهم حتى ما بعد الموت .

٢) المفضليات (Thorbecke) ص ٢٥ ، البيت ٣

٣) المفضليات (Lyall) ص٢٠٦

٤) راجع Noeldeke, *Fünf Mo'allaqât*, I, 64 ؛ حماسة ابي تمام ، ص ٢٦٥ ؛ الاغاني ١٥ : ١٢٨